علم الحديث في الهند

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي

[الحلقة الأولى]

تعريب : الأستاذ محمد حشمت الله الندوي

لا يخفى على من له إلمام بالتاريخ الإسلامي أن الإسلام دخل في الهند عن طريقين : طريق البر وطريق البحر، أما طريق البر فكان «مضيق خيبر» الذي بدأ يدخل منه الأتراك والباتان والمغول في الهند ، منذ نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري ، ولكن التجار العرب دخلوا في الهند وانتشروا في المناطق الساحلية من السند ومليبار ، إلى غجرات قبل ذلك بقرون ، وحملوا معهم ما كان لديهم مّن دين وكتاب وعلم وثقافة ، وكان المسلمون العرب ومنهم العراقيون قد أقاموا مستوطناتهم وأنشأوا مساجدهم قبل أن يصل إلى الهند جندي من جنود الإسلام المناضلين بأعوام طوال ، وكانت هذه المساجد هي المعاهد التعليمية التي عمروها بذكر الله وذكر الرسول الكريم -ﷺ- .

الصحابة و الهند :

بدأ العرب يشنون حملات على المناطق الساحلية للهند منذ عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واستمر ذلك في عهد الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - كله الذي كان فيه المسلم الناطق بكلمة التوحيد عالما بالحديث وراويًا له ، وقامت هذه الفئة المسلمة التي رفعت لواء الجهاد

بشن هجوم على « تانة » التي كانت ميناء عامرا للمحيط الهندي آنذاك بدلا من بومباي ، ثم توجهت إلى مدينة « بهروتشي » الواقعة في غجرات ومما لا شك فيه أن هذه الفئة المجاهدة كانت تضم عددًا لا بأس به من الذين كانوا قد تشرفوا برؤية النبي الكريم -ﷺ- ولذلك فإن الهند من البلاد التي سعدت بقدوم الصحابة الميمون - رضي الله عنهم أجمعين - .

أول محدث في الهند :

هجم المسلمون على السند سنة ٩٢هـ ، وفتحوها ، وظلت هذه المنطقة تحت سيطرة العرب منذ ذلك الوقت إلى بداية القرن الثالث الهجري وقد كان الجيش الذي جهزه الخليفة المهدي وأرسله إلى الهند سنة ١٥٩هـ يضم بين آخرين الشيخ ربيع بن الصبيح السعدي البصري ، وكان تابعيًا وممن قاموا بجمع الأحاديث المنتشرة وتصنيفها ، بل يقول فيه صاحب كشف الظنون :

« قيل هو أول من صنّف وبوب في الإسلام » وفي طبقات ابن سعد :

« خرج غازيًا إلى الهند في البحر ، فمات ، فدفن في جزيرة من جزائر البحر سنة ستين ومائة » . [ج/٧ ، ص/٣٦] :

ونجد في الهند تابعيًا آخر اسمه حباب بن فضالة ، تشرف بلقاء خادم النبي الكريم -ﷺ- سيدنا أنس بن مالك - رضي الله عنه - وكان قد سجل اسمه في الجيش الذي أرسل إلى الهند ، فسأل سيدنا أنس - رضي الله عنه - عما يجوز له الخروج في الجهاد بدون إذن أبويه أم لا ، فأشار عليه بالعودة إلى الوطن ، ولا ندرى أرجع إلى وطنه أم جاء إلى الهند ؟ [ميزان الاعتدال للذهبي : ج/١ ، ص/٢٠٨] .

وكان إسرائيل بن موسى تلميذ الإمام حسن البصري -رضي الله عنه- وكان يتردد إلى الهند كثيرًا ، ولذلك لقب بنزيل الهند ، يقول عنه ابن حبان في « الثقات » : « كان يسافر إلى الهند » .

مسلمان جديدان محدثان من السند : من أئمة الحديث والسير في القرن الثاني الهجري أبو معشر نجيح السندي الذي هاجر إلى المدينة ، واستوطنها ، فعرف بالمدني ، وكان علما من أعلام المغازي والسير ، بل هو من السابقين الأولين الذين عنوا بكتابة وقائع الغزوات والسير ، توفي سنة ١٧٠هـ ، وكانت لهجته تنم عن رائحة اللغة السندية حتى آخر أيام حياته ، وكان لا يتمكن من أداء الحروف العربية من مخارجها الصحيحة ولكن تلاميذه كانوا يزدحمون عليه في كل حين وآن ، ولما توفي شهد الخليفة هارون الرشيد جنازته ، وصلى بالناس .

وأما المحدث الآخر فهو رجاء السندي الذي سافر إلى إيران ، واشتهر هناك بالاسفرائيني ، وكان من النبوغ والبصيرة في علم الحديث بمكان ، قال عنه المحدث الكبير الحاكم أبو عبد الله النيسافوري : « ركن من أركان الحديث » وامتازت أسرته بأنها أنجبت كثيرًا من حفاظ الحديث ، توفي سنة ٢٢١هـ .

أول محدث جاء عن طريق « مضيق خيبر » :

دخل المسلمون في الهند عن طريق « مضيق خيبر » في بداية القرن الخامس الهجري ، وفتح السلطان محمود الغزنوي « لاهور » سنة ٤١٢هـ ، وفي عهد السلطان مسعود جاء رجل من لاهور إلى الهند ، كان اسمه الشيخ إسماعيل ، وكان عالما ضليعًا يجمع بين الحديث والتفسير ، ويتصف

بقوة المنطق والبيان ، قد أسلم على يديه عدد لا يحصى من غير المسلمين ، توفي في لاهور سنة ٤٤٨هـ ، يقول عنه صاحب تاريخ علماء الهند .

« كان من كبار المحدثين والمفسرين وأول من نشر علم الحديث والتفسير في لاهور » .

[الفهرست لابن نديم : ص/١٢٦]

المحدث الثاني الصغاني :

بعد وفاة الشيخ إسماعيل أظلت الهند إذ لم تر ضوء علم الحديث قرنًا ونصف قرن ، ثم طلع الصغاني صاحب « مشارق الأنوار » في مشارف القرن السابع الهجري ، ونشر علم الحديث النبوي الشريف في الهند ، ولكن نوره وصل إلى خارج البلاد أكثر من داخلها .

كان اسمه حسن بن محمد الصغاني وكانت أسرته من بلاد ما وراء النهر ثم سكنت في غزنين ، وسكن والده في الهند ، و ولد الصغاني سنة ٥٧٠هـ في لاهور ، وقرأ الكتب الابتدائية على أبيه ، ثم سافر إلى اليمن والحجاز والعراق لإكمال دراسته ، وأصبح إمامًا في اللغة والحديث ، وألف كتابه « مشارق الأنوار » في الحديث ببغداد ، وأهداه إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله ، كما ألف كتبا أخرى في هذا الموضوع ، وذهب إلى بغداد عام ٦١٥هـ ، وقام بالسفارة بين خليفة بغداد وسلطان غزنين والهند ، وتوفي سنة ٦٥٠هـ .

وكتابه « مشارق الأنوار » يشتمل على أبواب مختلفة للحديث النبوي الشريف كمشكاة المصابيح ، وتمتاز عنه المشكاة بأنها مرتبة حسب أبواب الفقه ، وأما « مشارق الأنوار » فإنه رتب على الحروف التي يبدأ بها الحديث ، مثلا هناك حديث يبدأ « بمن » وآخر يبدأ « بإذا » ثم حديث

يبدأ بالفعل الماضي وما إلى ذلك ، فقد وضعت كل هذه الأحاديث مرتبة باعتبار حروف الهجاء وعني به المحدثون عناية كبيرة ، و وضع كثير منهم شروحا له ، وأدخل ضمن مقررات المنهاج الدراسي في المدارس .

وجملة القول أن الإمام الصغاني الغزنوي اللاهوري محدث وحيد ، وكتابه « مشارق الأنوار » يعتبر خدمة جليلة قام بها العلامة الصغاني في هذا المجال ، في هذه الفترة الطويلة ، ولكن علماء هذا القطر لم يستفيدوا منه إلا قليلا لأنه قضى أكثر حياته في البلاد العربية والعراق ، وأما كتابه «مشارق الأنوار» فقد حظى لديهم بالقبول لكونه قد ألفه في هذا القطر ، وظل العلماء طوال هذه الفترة مشتغلين بنشاطاتهم العلمية والثقافية ، معتنين بدراسة المنطق والفلسفة وعلم الكلام ، ثم الفقه وأصول الفقه ، بطريقة عقلية بحتة ولذلك فإننا نجد علما ذا أهمية كبيرة كأصول الفقه قد اتسم بطابع العقلانية والفلسفة .

عدم الاعتناء بالحديث والمعارف الأخرى :

الواقع أن الشعوب الإسلامية التي وصلت إلى الهند عن طريق « مضيق خيبر » كانت من تركستان وخراسان وأفغانستان ، ورغم أن تركستان وخراسان كانت مركزًا لعلم الحديث في القرن الثالث الهجري إذ نشأ في هذه الأقطار كبار المحدثين أمثال البخاري ، ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داؤد السجستاني وابن ماجة القزويني ، ولكن حينما قامت فيها حكومات مستقلة أعجمية بعد ما أصاب الحكومة العباسية من ضعف واضمحلال بدأت تقل العناية بالحديث وكانت غارة التتار قاضية على البقية الباقية من هذه النشاطات ، وكان الهدف لدراسة العلوم الدينية هو

الحصول على منصب القضاء ، فكانت الحاجة تدعو إلى البراعة في الفقه فحسب ، والفقه في اللغة الفارسية يعني الحكمة ، ولذلك سُمّي الفقه بعلم الحكمة ، ولقب الفقيه بالحكيم في هذا العهد ، ومنذ ذلك الحين نال الفقه شيوعا وقبولا في هذه الأقطار دون الحديث والتفسير ، ولذلك فإن الطلاب الذين كانوا يقصدون الهند من خراسان وتركستان والمناطق المتأخمة لدراسة العلوم الإسلامية كانوا يركزون على الفقه بعد معرفة الصرف والنحو ، ومن أجل ذلك ألف في هذه البلاد عدد هائل من كتب الفقه و الفتاوى ، و ما نال الحديث عناية لائقة به .

وخلاصة القول أن العلماء الذين وصلوا إلى الهند عن طريق « مضيق خيبر » حملوا معهم أسفارًا من كتب الفقه كثيرة ، كانت أساسا لنظام الحكم وقانونًا للدولة وذريعة للتزلف إلى الملوك والسلاطين ، فمنذ بداية العهد المغولي إلى نهايته تم إعداد العديد من المؤلفات في الفقه والفتاوى ، وأكثرها شهرة وقبولا « الفتاوى الهندية » .

ولم ينل الحديث رواجا وشيوعا قبل عهد المغول في الهند إطلاقًا ، فكان الطلاب يدرسون « مشارق الأنوار » في الحديث ليس غير ، حتى عهد التغلق ، وأما الذي درس « مشكاة المصابيح » فكان يعتبر إمامًا لهذا الفن ، فكان الشيخ نظام الدين قرأ « مشارق الأنوار » على الشيخ كمال الدين زاهد الدهلوي ، الذي قرأه على الشيخ برهان الدين البلخي ، وأما الشيخ برهان الدين فكان قد قرأه على مؤلفه .

[تاريخ علماء الهند ، طبع نول كشور : ص/ ١٧٢]

ولكي نقدر مدى إهمال الناس لعلم الحديث في هذه البلاد نذكر الخلاف

الذي وقع في مسألة السماع في عهد السلطان غياث الدين تغلق ، فأقيمت الجلسة لتحقيق هذه المسألة ، واجتمع الفريقان للمناظرة ، وكان الشيخ نظام الدين بجانب والعلماء الآخرون بجانب آخر ، ويقول الشيخ نظام الدين : كلما ذكرت حديثًا كان العلماء يقولون بكل صراحة وجراءة : إن الرواية الفقهية أرجح بالنسبة للحديث وتارة كانوا يرفضون الحديث بحجة أنه قد استدل به الشافعي ، وهو يخالفنا ، فلا نأخذ به .

ولكن لابد أن تطلعوا على الحديث الذي دارت حوله هذه المناقشة الحارة ، لكي تعرفوا مدى معرفة العلماء لهذا العلم في هذه الفترة ، يتحدث صاحب تاريخ فرشته حول هذا الموضوع فيقول : فرشته بهذا الصدد !

« قال القاضي ركن الدين للشيخ نظام الدين وهو يحاوره ! أيها الشيخ ! « لماذا تحب الغناء والسماع ؟ » فاستدل الشيخ بالحديث النبوي الشريف « السماع مباح لأهله » على جوازه ، فقال القاضي ركن الدين ! مالك والحديث ؟ أنت مقلد ، هات برواية عن أبي حنيفة لنقبلها ، فتعجب الشيخ قائلاً : سبحان الله ! إني أذكر الحديث الصحيح للنبي الكريم -ﷺ- ، وأنت تريد رواية أبي حنيفة بدلاً منه ، لعل المنصب الذي تحظى به في الحكومة هو الذي غرك ، أرجو أن تحرم منه قريبًا ... وحينما سمع الملك الحديث النبوي الشريف سكت ولم يقل شيئًا » .

وفي عهد السلطان علاء الدين الخلجي جاء المحدث شمس الدين التركي من مصر إلى ملتان ، لنشر علم الحديث في الهند ، حاملاً معه أربعمائة كتاب في الحديث وما يتعلق به ، وكان ينوى وضع شرح في الحديث وتقديمه إلى السلطان ، ولكنه حينما وصل إلى ملتان سمع أن السلطان لا

يحافظ على الصلوات ، ولا يحضر المسجد لصلاة الجمعة ، فتأثر بذلك كثيرًا ، ورجع توًا إلى وطنه ، وكتب رسالة إلى السلطان يقول فيها :

« غادرت مصر لأسعد بزيارة سلطان دهلي ، وأقيم دعامة علم الحديث فيها ، إرضاء لله ورسوله – عليه الصلاة والسلام – ، وأحذر المسلمين من العمل بما ينشره العلماء الخونة من أباطيل وترهات » .

وخلاصة القول أن العاصمة – دهلي – والمناطق التابعة لها ساد فيها الجهل بعلم الحديث حتى منتصف القرن التاسع الهجري بوجه عام ، ولم يكن السبب لذلك عدم اعتناء المسلمين بهذا العلم ، وإنما كان ذلك نتيجة لصعوبة السفر إلى الخارج ، فكان لا يمكن السفر إلى مصر والبلاد العربية إلا عن طريق البر ، وكان الناس يسافرون إلى الجزيرة العربية عن طريق أفغانستان وتركستان وإيران والعراق ، وكانت هذه الطريق بعيدة وخطيرة للغاية فكان السفر شاقا وطويلا ، وكان ملوك دهلي لم يتمكنوا من السيطرة على المناطق الساحلية بعد ، ولذلك فإن مركز دهلي كان بعيدًا عن منبع علم الحديث .

البهمنيون وعلم الحديث :

أقام البهمنيون – أولاً – حكومتهم في دكن ثم وصلوا إلى بعض المناطق الساحلية ، واعتنوا بنشر هذا العلم بعض الشيء ، وكان أكثرهم حبًا للعلم وإجلالاً لأهله السلطان محمود البهمني ، وهو أول من عنى بنشر علم الحديث من ملوك الهند ، وقد حكم الهند من ٧٨٠هـ إلى ٧٩٩هـ ، يقول عنه المؤرخ الشهير فرشته :

« خصص للمشتغلين بالحديث النبوي الشريف رواتب في مدن كبيرة

تكريمًا لهم » .

ملوك غجرات و علم الحديث :

الواقع أن ملوك غجرات قاموا بدور كبير في تعزيز صلة الهند بجزيرة العرب ، فإن المسلمين شنوا حملات متتابعة على هذه المنطقة ابتداء من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري ، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها ، حتى جاء السلطان علاء الدين الخلجي ، فحقق انتصارًا كبيرًا ، إذ تمكن من الاستيلاء عليها ، ولما تولى « ظفر خان » منصب حاكم الولاية في عهد السلطان محمد شاه تغلق استغل ضعف الحكومة المركزية ، فدبر خطة لاستقلال غجرات ، وفعلا تمكن من إنشاء حكومة مستقلة في غجرات سنة ٨١٠هـ ، أيام الملك فيروز تغلق ، وتربع على عرشها باسم « السلطان مظفر » ، وخلفه نجله أحمد شاه الأول بعدوفاته في عام ٨١٢هـ ، وأحمد شاه هو الملك الذي جعل غجرات قنطرة تصل الهند بجزيرة العرب ، وبذلك التقى ساحلا بحر العرب ، وأصبحت المسافة البعيدة التي كانت تستغرق سنين تقطع في شهور بسبب سهولة السفر في البحر ، وجعلت البواخر تسير في البحر بانتظام ، وسافر الناس لزيارة بيت الله الحرام كل عام عن طريق البحر ، برعاية ملوك بيجافور وغجرات ، كما سافر طلاب العلوم إلى البلاد العربية عن نفس الطريق ، وبذلك انتقل علم الحديث إلى الهند ، و وجد في مختلف مدنها تربة صالحة للنمو والازدهار ، فأخذ في النمو والارتقاء ، وجاء الملك أكبر ، ففتح غجرات ، و وصل العاصمة « دهلي بمكة المكرمة والمدينة المنورة عن طريق « سورت » و « كنبايت » .

وجملة القول أن سهولة السفر وكثرة تردد الناس إلى البلاد العربية هيأت لعلماء الهند فرصة للاطلاع على العلوم الحجازية العربية والاستفادة منها وكانت تحول بين دهلي وبين ساحل المحيط الهندي – آنذاك – ثلاث ولايات إسلامية ، وهي « غجرات » و « بيجافور » و « مندو » ثم كانت تقع دهلي ، فكانت الموجات العلمية التي كانت تنطلق من بحر العرب تصل إلى المناطق الساحلية بالهند بهذا الترتيب .

أثر تعصب الصفويين في إيران :

إن المأساة القومية والدينية التي شهدتها إيران في عهد الصفويين كانت فاتحة خير كثير للهند على الأقل ، إذ تغلب الصفويون على إيران ، وجعلوا مذهب الشيعة دينا رسميًا للدولة ، فأصبحت أرض إيران الخضراء جحيمًا لا تطاق لعلماء أهل السنة بفعل عصبية الشيعة ، ولذلك فإن كبار العلماء من أهل السنة هاجروا من وطنهم إلى البلاد العربية والهند .

وكان أول من وصل منهم إلى الهند حاملا هذا العلم الشريف هو الشيخ نور الدين أحمد الشيرازي ، وذلك في عهد السلطان أحمد شاه الأول (٨١٢-٨٢٤هـ) الذي تولى زمام الحكومة الإسلامية التي قامت جديدًا في غجرات ، وكان الشيخ نور الدين قد تتلمذ على المير السيد شريف الجرجاني ، وكان يحمل سندًا عاليا جدًا لصحيح البخاري ، فأخذه منه كبار علماء الحديث من الحجاز واليمن بغبطة وسرور .

[يتبع]